

## محاضرة:

### أثر المعتزلة في النقد الأدبي

#### 1- تعريف المعتزلة:

**أولاً: لغة:** جاء في لسان العرب: عزل: عزل الشيء يعزله عزلاً وعزّله فاعتزل وانعزل وتعرّز: نحاه جانباً فتنحى. وتعازل القوم: انعزل بعضهم عن بعض. والعزلة: الانعزال نفسه. واعتزلت القوم أي فارقتهم وتنحيت عنهم. وقوم من القدرية يُلقَّبون المُعْتزلة زعموا أنهم اعتزلوا فنتي الضلالة عندهم، يعنون أهل السنة والجماعة والخوارج الذين يستعرضون الناس قتلاً. ومرّ قتادة بعمر بن عُبيد بن بابٍ فقال: ما هذه المعتزلة؟ فسُموا المُعْتزلة.

**ثانياً: اصطلاحاً:** المعتزلة اسم يطلق على أول مدرسة كلامية واسعة ظهرت في الإسلام، وأوجدت الأصول العقلية للعقائد الإسلامية. وقد نشأت في البصرة في حدود نهاية المائة الأولى للهجرة، وضمت اتجاهات فكرية متعارضة وآراء دينية متباينة. وأورد الشهرستاني في كتابه " الملل والنحل " أنّ " المعتزلة ويسمّون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقَّبون بالقدرية وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً، وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

والذي يعمُّ طائفة المعتزلة من الاعتقاد، القول بأن الله تعالى قديم، وأنفقوا على أنّ كلامه محدث مخلوق، وأن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها، استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار.

وكان لها دور كبير في تاريخ الفكر الإسلامي طيلة القرنين الثاني والثالث الهجري على الأقل، ولها الفضل في تأسيس القواعد الفكرية التي قام عليها فيما بعد علم الكلام السنّي. ورجال المعتزلة هم أول من أدخلوا النزعة العقلية في الإسلام وصانوها.

## 2-نشأة المعتزلة:

سار الصحابة والتابعون والسلف من بعد الرسول (ص) على مذهب ينهون فيه عن الخوض في المتشابهات وعن الجدال في الدين واطمأنت قلوبهم إلى هذه الطريقة، ولكن ما لبثت الفتن والخلافات السياسية في أواخر عهد عثمان وعلي أن دبّت بينهم واستتبعت هذه الخلافات السياسية خلافات في مسائل العقيدة والدين.

وظهر الجدل حول الخلافة وصاحب الحق فيها، والأحداث التي تمر بها الأمة ولعل من أسبق المسائل الدينية التي بدأ الخوض فيها مسألة القضاء والقدر وانقسام الناس حولها إلى جبرية (الإنسان مجبور في أفعاله) والقدرية (التي تعتنق حرية الإرادة) إلى جانب مسائل أخرى كحكم مرتكب الكبيرة وانقسام الناس حوله بين من يراه كافرا (الخوارج) ومن يراه مؤمنا منافقا (الحسن البصري).

نشأت فرقة المعتزلة في هذا المناخ الذي عرف الجدل حول العديد من المسائل. وقد ظهرت إلى الوجود ردحا طويلا من الزمن. على الرغم من أن هناك من يرى بأن المعتزلة اسم أطلق على قوم من أصحاب علي رضي الله عنه اعتزلوا السياسة، وانصرفوا إلى العقائد. على أن الرواية الشائعة تقول إن التسمية جاءتهم بسبب الخلاف حول مسألة مرتكب الكبيرة وهي كلمة أطلقها المعتزلة أنفسهم على أنفسهم لاعتزالهم أقوال جميع الفرق التي أخطأت في نظرهم الحكم على مرتكب الكبيرة.

وذهب المعتزلة إلى أن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلتي الكافر والمؤمن وسمّوه فاسقا وخالفت المعتزلة آراء الخوارج وتركت مجلس الحسن البصري حينما تطاول عليه تلميذه واصل بن عطاء واعتزل مجلسه إلى أسطوانة من اسطوانات المسجد. يقرّر ما

أجاب به: وامتاز المعتزلة من بين سائر الفرق السلامية بحرية الرأي والاعتماد على العقل اعتمادا شديدا.

ويعتبر واصل بن عطاء رأس المعتزلة، وإليه تُنسب جماعة الواصلية. كان تلميذ الحسن البصري، يقرأ عليه العلوم والأخبار أيام عبد الملك، وهشام بن عبد الملك بن مروان، ثم اعتزل حلقتة بعد أن اختلفا في الحكم على مرتكب الكبيرة بين كونه مؤمنا مطلقا، أو كافرا مطلقا، فاعتبر واصل بن عطاء أن الفاسق؛ أي صاحب الكبيرة له منزلة بين المنزلتين، فهو لا مؤمن، ولا كافر. ومن هنا اعتزل حلقة الحسن البصري، وسُمي هو وأصحابه بالمعتزلة. واتفق المعتزلة على أصول خمسة من قال بها كان معتزليا، ومن لم يقل بها فليس من أتباعهم، ويسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد. وهذه الأصول هي:

1- التوحيد: ومعنى ذلك أنه تعالى ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جوهر، وأن شيئا من الحواس لا يدركه في الدنيا والآخرة. وأنه لا يحصره المكان، ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل وليس له زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حد، وأنه القديم وما سواه محدث.

2- العدل: ومعناه أن الله لا يحب الفساد، ولا يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه

بالقدرة التي جعلها الله لهم، وركبها فيهم، وأنه لم يأمر بما أراد، ولم ينه إلا عما كره. وأنه ولي كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها. لم يكلفهم ما لا يطيقونه، ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه.

3- القول بالوعيد: ومعناه أن الله لا يغفر لمرتكبي الكبائر إلا بالتوبة وأنه لصادق في وعده ووعيده.

4- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: والقيام بهذه الوظيفة واجب على سائر المؤمنين، حسب استطاعتهم بالسيف فما دونه، ولو كان بالجهاد. ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق.

5- القول بالمنزلة بين المنزلتين: ومعناه أن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنا، وهو اسم مدح، والفاسق لم يستجمع خصال الخير، ولا استحق اسم المدح، فلا يسمى مؤمنا، وليس هو بكافر مطلقا أيضا؛ لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه، لا وجه لإنكارها، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالد فيها؛ إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان " فريق في الجنة وفريق في السعير " الشورى الآية 7. لكنه يخفف عنه العذاب، وتكون دركته فوق دركة الكفار.

### 3- جهود المعتزلة في ساحة النقد الأدبي

يرى أحمد أمين أن للمعتزلة الفضل الأول في وضع الأسس الأولى لعلم الكلام وعلم البلاغة، وعلم الجدل والمناظرة، كما أنهم كانوا المنفذ الأول الذي دخل منه فلاسفة المسلمين إلى الفلسفة اليونانية.

كانت فرقة المعتزلة فئة نشيطة بين النقاد والبلاغيين العرب، واضطلع المعتزلة منذ أول أمرهم بمهمة الدفاع عن الإسلام، والرّد على خصومه، فاستلزم ذلك منهم ثقافة بأصول الأديان واضطرّهم أن يتعمقوا في دراسة الفلسفة والمنطق ليردّوا على هؤلاء الأعداء وكانت مجادلة الخصوم تدفعهم إلى العناية بفن القول وأمور البيان. وحرصوا على التزود بما يساعدهم في ذلك فقد " أفادوا من الفلسفة أن نظمت عقولهم تنظيماً منطقياً دقيقاً وأن جعلتهم يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء، كما جعلتهم يقتدرون على إيراد الحجج والبراهين وتشعيب المعاني وتفريغها".

واشتهر منهم رجال وعلماء كُنز في ساحة الأدب والنقد والبلاغة. كالجاحظ وبشر بن المعتمر وعمرو بن عبيد والرماني والمرزباني والشريف المرتضى والزمخشري، وقد كانت قضية إعجاز القرآن من أبرز القضايا البلاغية والنقدية التي انصب عليها اهتمامهم إلى جانب قضية المجاز وقضية اللفظ والمعنى وقضايا أخرى. ففي البيئة الاعتزالية وُلدت كثير من المصطلحات النقدية والبلاغية كمصطلح مراعاة مقتضى الحال وموافقة المقام للمقال.

" على أنه ينبغي أن نلاحظ أن المعتزلة حين طلبوا معرفة آراء الأمم الأجنبية في البيان والبلاغة لم يكونوا يقصدون إلى تمثيلها واعتناقها، إنما كانوا يريدون أن يوازنوا بين آراء الأجانب وآراء العرب في بلاغة الكلام، محاولين أن يضعوا للبلاغة العربية قواعد وقوانينها الذاتية".

ووضع بشر بن المعتمر أسس البلاغة العربية من خلال صحيفته التي نقلها الجاحظ في البيان والتبيين، والتي أصبحت مرجعا نقديا يستند إليه النقاد، نصح فيها الكتاب بتخيّر أوقات الكتابة، الحرص على أن يكون اللفظ رشيقا عذبا، وفخما سهلا، وأن يكون المعنى ظاهرا مكشوفًا، وقريبا معروفا.

ولقد تأثر الجاحظ بآراء المعتزلة وانتسب إليهم، فكان من أبرز رجال هذا المذهب أيام المعتصم والمتوكل، خاصة وأنه تميز عن الباقيين بمطالغته للكثير من كتب الفلاسفة مما أهله إلى الانفراد بآراء في العديد من المسائل، والتف حوله العديد من أصحابه، مشكلين ما يُعرف بالفرقة الجاحظية. ومما عُرف عن الجاحظ قوله: " إن المعارف كلها ضرورية طباع، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد، وليس للعباد كسب سوى الإرادة، وتحصل أفعاله طباعا".

كما اعتبر أن أهل النار " لا يخلدون فيها عذابا بل يصيرون إلى طبيعة النار، وكان يقول النار تجذب أهلها إلى نفسها دون أن يدخل أحد فيها"

لقد تميز الجاحظ بالعديد من الآراء في مختلف المواضيع، وكانت أهمها التي بحث فيها مكمّن إعجاز القرآن. وعلى الرغم من ضياع أهم الدراسات في هذا المجال، والتي تمثلت في كتاب (نظم القرآن). إلا أن خلاصة فكر الجاحظ يمكن استخلاصها من كتبه المتبقية.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن نزعة الكلام وفكر الاعتزال هو الغالب على آراء الجاحظ في كل مبدأ أراده لإثبات قدرة الخالق، وإعجاز القرآن؛ فتعريفه لكلام الله بأنه مجموعة أصوات هو أصل لنظريته في قضية اللفظ والمعنى. ومن هذا المنطلق حاول علماء المعتزلة البحث في سبب إعجاز القرآن؛ فاعتبروا أن الكلمات المتكونة من هذه الأصوات هي موطن

الإعجاز. وانطلاقاً من هذا الفكر، جاء تعريف الجاحظ للصوت بأنه " آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف".

ثم جاءت نظريته حول اللفظ والمعنى ملخصة في عبارته المشهورة: " والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبديوي، والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ، وجنس من التصوير".

ويفهم من هذه العبارة إرجاع السبق والمزية للفظ على حساب المعنى، ويبدو فكر المعتزلة في إثبات إعجاز القرآن الكريم بكلماته لا بمعانيه واضحاً في نظرية الجاحظ لثنائية اللفظ والمعنى.

وقدّم الجاحظ أول تعريف دقيق للاستعارة بأنها تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه، وكان أول من تلقّف مصطلح البديع من أفواه الرواة. وأول من توسع في الحديث عن الألفاظ ومخارج الحروف، وما يشترط في اللفظة الفصيحة، وأول من تحدث عن السرقات الشعرية فبيّن أنّ هناك معاني عامة يشترك الناس في معرفتها والأخذ بها، وأذاع المعتزلة مصطلح النظم.

والملاحظ في مباحث المعتزلة اختلاط المسائل النقدية بمسائل البلاغة. وهو ما يميّز المتكلمين عموماً ولعلّهم كانوا السبب في أن النقد العربي لم يميّز من البلاغة تميّزاً تامّاً. وهو ما يظهر في العديد من مصنفات المعتزلة فقد اهتمّ الرّماني في مؤلفاته باللغة والنحو، وعلم الكلام، ووجوه البيان والبلاغة، وهو ما ساهم في تشكيل تصور نقدي لما يجب أن يكون في الشعر والكلام عموماً من خصائص فنية. فعرض لمختلف الألوان البلاغية مع إيراد الأمثلة والشواهد عليها من القرآن الكريم.

كما أشار الرّماني في أكثر من موطن إلى الأثر النفسي للكلام البليغ. وتحت عن أغراض الشعر ورأى بأنها خمسة: النسب، والمدح، والهجاء، والفخر، والوصف، ويدخل التشبيه

والاستعارة في باب الوصف. كما توقف الرماني عند مسألة الغموض في القول وبين أسبابه كاستخدام الألفاظ التي تحتل أكثر من وجه، أو عدم الالتزام بالترتيب الطبيعي لأجزاء الكلام.

وألف المرزباني كتاب " الموشح " وهو كتاب جامع لأراء نقدية، ينقل عن علماء اللغة والنحو والأدب والرواية آراءهم في الشعراء منذ الجاهلية حتى أيامه، وما أنكروا على كثيرين منهم من عيوب في أشعارهم من حيث الشكل أو المضمون. وتتنوع تلك الآراء بين نقد أساسه الذوق الفردي، ونقد عميق يدل على دراية بحدود الشعر لغّةً ووزناً، ومعنى.

#### 4- أثر المعتزلة في حركة النقد

ساهمت آراء المعتزلة في المجال النقدي بتنمية مسيرة التفكير النقدي، وصبغته بلون العقل والمنطق، وقد كان أثر المعتزلة فيمن جاء بعدهم أثراً عميقاً، فنجد صدى بشر عن تخير الأوقات التي يسمح فيها القول في وصية أبي تمام للبحثري. كما أخذ ابن قتيبة أصداء هذه الفكرة في مقدمته على الشعر والشعراء، واستفاد ابن قتيبة أيضاً من حديث الجاحظ عن قضية القديم والحديث فسلك مثله المسلك المعتدل. وأقبل ابن المعتز على بيان الجاحظ واستفاد من تدوينه للبديع وحديثه عن شعرائه كبشار ومسلم والعتابي وغيرهم، وتأثر ابن وهب بآراء الجاحظ تأثراً واضحاً.

وغيرهم كثر ممن تأثروا بآراء الجاحظ فقد تركت كتاباته بصماتها في جميع من جاء بعده. فكذا أخذ عنه الباقلاني والتوحيدي وابن سنان الخفاجي.

ولم ينحصر تأثر العلماء بالجاحظ فقط وإنما بالعديد من المعتزلة، فقد نقل العسكري كلام الرُّماني عن التشبيه والاستعارة. واعتمد ابن رشيق في كلامه عن البيان على ما كتبه الرُّماني، وتأثر السكاكي بالكشاف للزمخشري ويبدو من الواضح أنّ نشاط المعتزلة النقدي كان واسعاً خصباً فقد طرّقوا قضايا كثيرة، وإن كانت القضية الأساسية الكبرى التي شغلت اهتمامهم هي قضية القرآن، وما تفرّغ عنها من مسائل الاعجاز وغيرها.

